

- إِنَّ لِكُلِّ فَطْنٍ غَفْلَةً تَأْتِيهِ مِنْ قَبْلِ أَبِيهِ، أَوْ مِنْ قَبْلِ أُمِّهِ، قَدْ تَدَسَّسْتُ فِي الْعِرْقِ، وَخَالَطْتُ الدَّمَ، وَقَدْ كَانَ عَبْدُ الْمَلِكِ حَازِمًا أَرِييًّا ... فَذَلِكَ مَا عَنِيتُ يَا ابْنَ النِّعْمَانِ.

- وَمَنْ أَيْنَ لَكَ أَنَّ مُسْلِمَةَ قَدْ غَفَلَ عَمَّا فَطَنْتَ لَهُ؟

- لَقَدْ أَتَيْتُهُ أُحَدِّثُهُ عَنْ ذَاكَ، فَإِذَا هُوَ قَدْ تَغَدَّى وَمَلَأَ بَطْنَهُ وَنَامَ ... وَجَلَسْتُ إِلَيْهِ أُحَدِّثُهُ، فَمَا أَرَاهُ قَدْ سَمِعَ شَيْئًا مِمَّا قُلْتُ أَوْ دَرَى بِي!

- أَفَلَسْتَ تَعِيبُ عَلَيْهِ يَا ابْنَ هُبَيْرَةَ إِلَّا أَنَّهُ قَدْ أَكَلَ وَنَامَ؟

- إِنَّ الْأَحْمَقَ يَا ابْنَ أَخٍ مَن يَمَلَأُ بَطْنَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَجِدُهُ، وَأَحْمَقُ مِنْهُ مَنْ يَنَامُ وَالْحَوَادِثُ تَرْقُبُهُ بَعِیُونَ بِقِظَلَةٍ!

- غَدًا تَرَى عَاقِبَةَ أَمْرِهِ وَأَمْرِكَ يَا ابْنَ هُبَيْرَةَ.

- إِنَّكَ كَانَتْ وَعِيدًا يَا ابْنَ النِّعْمَانِ فَقَدْ وَاللَّهِ جَاوَزْتَ قَدْرَكَ، وَإِنْ كَانَ أَمَلًا تَأْمُلُهُ فَإِنِّي وَاللَّهِ لِأَرْجُو مِثْلَ مَا تَرْجُوهُ عَلَى حَذَرٍ وَتَخَوُّفٍ.

- وَمِمَّ تَحْذَرُ؟

- تَدْبِيرُ ذَلِكَ الْكَلْبِ الْإِيُونِ، فَمَا أَظُنُّهُ السَّاعَةَ إِلَّا يَأْمُرُ الرُّومَ عَلَى الْكِيدِ لِمُسْلِمَةَ وَقَدْ مَلَأَ مُسْلِمَةُ بَطْنَهُ وَنَامَ!

وَرَجَعَ الْإِيُونُ إِلَى مُسْلِمَةَ يَعْرِضُ عَلَيْهِ مَا انْتَهَتْ إِلَيْهِ مُحَادَثَاتُهُ، قَالَ: إِنَّ الرُّومَ أُمَّةٌ مُحَارِبَةٌ يَا أَمِيرُ مِنْذُ التَّارِيخِ الْبَعِيدِ، لَمْ تَضَعْ سَيْفَهَا قَطُّ مِنْذُ كَانَتْ، وَلَا رَضِيَتْ الدِّينِيَّةَ، وَقَدْ أَدَالَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْهَا فُغْلِبْتُمْ خُلَفَاءَ قُسْطَنْطِينِ عَلَى أَرْضِهِمْ وَدِيَارِهِمْ وَرَعَايَاهُمْ فِي سَائِرِ فَجَاجِ الْأَرْضِ، ثُمَّ جِئْتُمْ تَطْلُبُونَ هَذِهِ الْحَاضِرَةَ فَكُنَّ قَدْ دَانَتْ لَكُمْ كَمَا دَانَتْ الْمَمَالِكُ وَأَسْلَمَتْ مِفَاتِيحَهَا، فَقَدْ بَلَغَ مِنْهُمْ الْجَهْدَ مَا رَأَيْتُ بَعِينِيَّ - وَمَا لَا أَظُنُّهُ قَدْ غَابَ عَنْ فِطْنَةِ الْأَمِيرِ - فَلَوْلَا أَنَّهُمْ أَهْلُ مُصَابِرَةٍ لَأَسْلَمُوا إِلَيْكُمْ مِنْذُ بَعِيدٍ، وَلَكِنْ عَيُونُهُمْ مَا تَزَالُ تَطْلُعُ عَلَيْكُمْ حِينًا بَعْدَ حِينٍ فَيُرُونَ ضَخَامَةَ مَا اخْتَزَنْتُمْ مِنَ الزَّادِ وَالْعِتَادِ وَمَا لَا يَزَالُ يَرِدُ إِلَيْكُمْ مِنْ ذَلِكَ؛ فَيَقُولُونَ لَوْلَا أَنْكُمْ تَرُونَ أَجَلَ الْفَتْحِ بَعِيدًا وَأَنَّ دُونَهُ مَصَابِعَ وَأَهْوَالًا لَمَا أَسْرَفْتُمْ فِيمَا تَجْمَعُونَ مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَاتِ، وَإِنَّهُمْ إِلَى ذَلِكَ لِيَخْشَوْنَ - لَوْ أَسْلَمُوا إِلَيْكُمْ - أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِمْ حَيْفٌ فِي الْمَعَامَلَةِ، كَمَا يَصِفُ لَهُمْ بَعْضُ رَوَاةِ الْأَخْبَارِ مِنَ فُلُولِ الْمُنْهَزِمِينَ أَمَامَ جِحَافِ الْعَرَبِ فِي الْأَمْصَارِ الْمَفْتُوحَةِ.

- وَبِمَ يُرْجَفُ هَؤُلَاءِ يَا الْإِيُونُ؟